الدعاء والخندق

قصة بقلم نمر سرحان

عندما وصل الاستاذ باب الغرفة ، حيث كان الرجال يجلسون ، وهم بالدخول ، طالعته وجوه الجالسين المقطبة العابسة والتي تقطر معالمها بالحزن والمرارة . خلع نعليه دون ان يفك السيور.. ونظر يمنة ويسرة ثم قال بصوت خفيض مترجرج مخنوق : ـ السلام عليكم .

وجاء جواب وحيد متردد : ـ عليكسلام .

ومشى الاستاذ الى صدر الغرفة حيث القى جسده في اول مكان خال واجهه . واسند ظهره الى الجدار وطاف بعينيه الغائمتين بالدمع في ارجاء الغرفة ... ثم اسدل جفنيه وأسلم رأسه للجدار بينما طفت الدموع على خديه . هزه رجل عجوز وهو يقول :

ـ وحد الله يا استاذ ... انت لازم تجابرنا .

طأطأ الاستاذ رأسه واخذ يمسح الدمع بمنديله وهو يحاول ان يخفي ذلك ، ثم عاد يرفع رأسه ويطوف بعينيه النافرتين في « اشباح » الجالسين . قال وهو يحاول أن يحرر لسانه من الدبق الممسك به في كل اطراف فمه : ـ دفنتم الشهيد ؟

قال الملازم الجالس قريبا من الباب ، والذي ترك طاقيته الخفيفة الخضراء تغطي جبينه وعينيه ، وهو يحاول ان يسيطر على فكيه : ـ رحمة الله عليه .. كلنا لها يا استاذ .

وارتعشت عضلات وجه الاستاذ واختلجت شفتاه بينما اندفعت عبر مآقيه دفقة من الدموع راح يمسحها عن صفحة خديه ..

ووقعت عينه على واحد من اخوة الشهيد . كان وجه ذلك الشخص محتقنا بالسواد بينما تدلى رأسه على صدره كما لو كان رأس مشنوق ، أما كتفاه فانهارا الى أسفل . عاد الاستاذ يسأل وهو يبتلع ريقه : ـ والجرحى .. كيف هم .. الولد الصغير وابوه ؟

تطوع رجل بالرد وهو يلصق طرفي ورقة السيجارة على « حبات » الهيشة وقد بدا في حديثه وكأنه يعرض انباء مفرحة :

ـ أوه ... الحمد لله . نحن لازم نحمد الله على سلامتهم .. الولد وابوه بالف خير .. اصابات لا تذكر .. وغدا ان شاء الله يخرجان من المستشفى .

قال رجل عجوز :

ـ الحمد لله .. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

تشجع رجل يبدو انه من غير اهل الشهيد :

ـ الحمد لله .. لازم نشكر الله على سلامتهم .. أمر الله ونفذ.

وران صمت مخيف على الغرفة لم يكن ليقطعه سوى زفرات بعض الجالسين أو صرخات النسوة المكتومة حينا والعالية حينا آخر والواردة من الدار المجاورة حيث يتجمعن هناك في جلسة منفصلة .

وتنطلق أصوات عبارات تارية من جهة المقبرة معلنة زفاف شهيد آخر الى الجنة .

ودون مقدمات ارتفع صوت الاستاذ في الغرفة .. مطمئنا .. وبنبرات هادئة : ـ اسمعوا يا جماعة ..

وارتفعت الرقاب المتهدلة . واعتدل شيخ عجوز كان يلقي بجسده الذاوي على المساند .. استمر الاستاذ يقول وهو يمد رجليه على السجاد امامه :

ـ اليوم مات احمد وغدا من يدري من يموت .. انا ام الشاب ام الثالث . نحن هنا عيلة واحدة مجموعة .. هاتوا قولوا لنا ماذا يجب أن نعمل لاولاد الشهيد بدل ان نقعد نبكي ..

رد الشيخ العجوز على الفور :

ـ خالقهم لا ينساهم يا ابني .. هو أحسن مني ومنك ..

قال الاستاذ بصبر نافد ، وقد ارتفع صوته هذه المرة :

ـ والنعم بوجه الله يا عمي .. لكن البلد في حالة حرب .. ومن يدري ماذا يحدث بعد ساعة او يوم ؟

عاد الشيخ العجوز يقول : ـ وكلنا امرنا الى الله .

تدخل الملازم قائلا :

ـ يا عمي أمر الله نافذ .. لكن علينا ان نحمي حالنا . انا منذ شهرين اطالبكم تحفروا ملجا .. استحكام .. خندق .. وما واحد عمل حاجة .

هز الشيخ العجوز راسه وهو يردد :

ـ يدركم الموت ولو كنتم في بروج محصنة ...

وارتفعت أصوات التهليل ممزوجة بالزفرات والتنهدات .. وهتف رجل قريب من الباب :

ـ يا اخوان .. « الشيخ » قادم ومعه جماعة الدراويش .

هب الجميع وقوفا . أخذوا يزيلون الوسائد والمساند لافساح المجال لجماعة الدراويش كي ياخذوا اماكنهم . ازاح شخص كومة الاحذية خارج الباب . ووصل « الشيخ » الى باب الغرفة ووراءه رهط من الرجال تتدلى لحاهم السوداء الطويلة على صدورهم وتتهدل على جنباتهم ثيابهم الواسعة الفضفاضة وفوقها الجبة . وبعد المصافحة اخذ الجميع اماكنهم في المجلس . ولوهلة ران صمت عميق على جو الغرفة ثم قال « الشيخ » بصوت عال وهو يشد على مخارج الحروف : ـ تعلمن أن لا اله الا الله .

وترتفع أصوات الدراويش بالتهاليل بينما يمسك « الشيخ » بمسبحته الطويلة يمرر الحبات حتى يصل الى المئة . وبعدها يدفع الشيخ بكوعه جاره الدرويش الاعمى بحركة آلية .. فيضع هذا كفه على اذنه وتنطلق عقيرته بالانشاد :

الله الله ، الله الله ما لنا مولى سوى الله

ويأخذ الدراويش بالترديد والترنح .

ونهض الاستاذ واقفا . واشرأبت نحوه الاعناق بتعبير عن الدهشة لخروجه من مجلس الانشاد . استمر المريد الاعمى يكرر الابيات بينما عاد المنشدون يرددون . وكان الاستاذ يقطع الطريق الى باب الغرفة . امسك بيد الملازم واخذ يقوده نحو الباب خارجا .

تبعهما أصفر اخوة الشهيد الى ساحة الدار . قال الشاب الصغير : ـ مالك يا أستاذ .. لا تزعل سيدنا الشيخ .

ابتلع الاستاذ ريقه وهو يضع يده على كتف الشاب :

ـ يا أخي هذا لا يجوز .. أمس اربد وقراها انضربت بالصواريخ .. ونحن نعمل حلقة ذكر .. حلقة ذكر ..

قال الشاب : ـ لكن الشيخ والدراويش قادمون عندنا للبيت فهل نخرج ونتركهم ؟..

رد الاستاذ بصبر نافد :

ـ يا حبيبي « الشيخ » حباله طويلة .. من تهليل وتسبيح وانشاد للعصر لا ينتهي .

امسك الاستاذ بذراع الملازم الذي كان يتابع النقاش بهدوء وهو يتابط بندقيته القصيرة ويفرك لحيته النامية .. قال الاستاذ :

ـ انا واياك الان نريد أن نحفر خندقا متعرجا في الساحة هناك لكل العيلة .. الان .. ولو بقينا لمنتصف الليل .

رفع الملازم رأسه بصمت .. سبقه الشاب الصغير للكلام :

ـ طيب وانا معكم .. لكن حتى يخرج الدراويش .

أسرع الاستاذ الى زاوية في ساحة الدار وتناول فاسا ومجرفة.. ثم عاد الى صاحبيه وقال :

ـ يلله ... الليلة لازم نحفر الخندق ونجهزه .

ومشى الاستاذ خارجا من الباب الخارجي فيما تبعه الملازم .

نظر الشاب الى باب الغرفة حيث ينبثق صوت الدراويش . رأى الاولاد يغلقون الباب باجسادهم وهم يتدافعون ليتفرجوا على حلقة المنشدين . ثم انطلق الشاب خارجا الى الساحة الواسعة حيث كان الاستاذ يرسم خطا متعرجا بالفاس وينظر الى الملازم الذي كان يتكيء بجذعه على عصا المجرفة ويتابع الخط المتعرج بنظراته .

وادي السير ـ عمان

نمر سرحان